مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X




المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 16 / N°: 1 (2022), page13-36

# تدبر القرآن الكريم
# الأبعاد المعرفية والدلالات الحضارية

# Meditate on the Holy Quran
# Cognitive dimensions and cultural indications

**د. سمير فريدي**
باحث في الفكر الإسلامي

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مسألة التدبر المعرفي لما يكتسيه من أبعاد حضارية تتمثل في إعادة قافلة الأمة إلى سكتها الصحيحة، وذلك من خلال معرفة شروط الفهم التكاملي للقرآن الكريم الناتج عن القراءة الجامعة بين الوحي والكون معا، جمعا جدليا قائما على التفاعل بين القراءتين لأنهما تتضافران و تتعاضدان لتشكّلا الرؤية القرآنية المعرفية الحضارية.

إن تدبر القرآن الكريم تدبرا معرفيا، انطلاقا من مراعاة النسقية القرآنية، وباعتباره معادلا موضوعيا للوجود الكوني وحركته، عن طريق الجمع بين قراءة الكتاب المسطور قراءة استنطاقية تثويرية متدبرة، وقراءة الكون المنشور قراءة تحليلية سننية علمية، نستطيع تجاوز تلك القراءة العِضينية، إلى قراءة قائمة على منهج تكاملي توحيدي يهدف إلى اكتشاف القوانين الفاعلة في التاريخ، والسنن الإلهية الحاكمة للكون والإنسان، وللثقافات والحضارات، بغية تحقيق الفاعلية العمرانية وإخراج الإنسانية من أزماتها، وتقويم مسارها الحضاري وتحديد وجهتها.

**الكلمات المفتاحيّة:** التدبر، الأبعاد المعرفية، الدلالات الحضارية.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X




المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 17 / N°: 1 (2023), page13-36

**Abstract** : This research aims to study the issue of cognitive reflection due to its cultural dimensions represented in returning the nation'scaravan to its correct path, through knowing the conditions for an integrative understanding of the Holy Qur'an resulting from the unify in greading between the revelation and the universe together, a dialectical collection based on the interaction between the tworeadings because they combine and They cooperate to form the Qur'anic vision of civilization alknowledge. Contemplating the Holy Qur'anis an epistemological study, based on observing the Qur'anic system, and consider ingit an objective equivalent of existence. The cosmic and its movement, by combining the reading of the written book with an inquisitive, revolutionary, and reading the published universe with an analytical, Sunni, scientific reading. And for cultures and civilizations, in order to achieveur banefficiency and get humanity out of its crises, correct its civilizational path and determine its destination.

**Keywords**: reflection, cognitive dimensions, cultural indications

## •مقدمة

إن المرتل لكتاب الله جل جلاله مطالب بفهمه حق الفهم وبتدبره حق التدبر، لإعادة إحياء الأمة بالقرآن، باعتباره حبل الله المتين وهداه المستقيم، المتضمن لنبأ من قبلنا، وخبر ما بعدنا وحكم بيننا، فمن تغافل عن المحددات والخصائص الموجودة في آياته وسوَره وابتغى الهدى المعرفي والمنهاجي خارج سُورِه، أضله الله، ومن تركه بالجملة قصمه الله، فالتدبر المعرفي يكتسي بعدا حضاريا يتمثل في إعادة قافلة الأمة إلى سكتها الصحيحة، وإخراجها من الزقاق المظلم والمنعرج الخطير الذي توجهت نحوه منذ قرون، وهذا يستدعي توبة منهاجية لإزالة ما علق بالمصطلحات

القرآنية من أوهام، وتحريرها لتصبح منفتحة على مختلف الأنساق المعرفية ومهيمنة عليها. فما هي شروط الفهم التكاملي للقرآن الكريم؟ وما هي الأبعاد المعرفية والدلالات الحضارية للقراءة التدبرية؟

## الفهم التكاملي والقراءة الجامعة: تدبر القرآن والتفكر في الكون

إن المطلوب من المتدبر قراءتين وليس قراءة واحدة فقط، فكما أمر الله عز وجل بتدبر القرآن بقوله: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[ص: 29]، أمر بالتفكر والنظر في الكون في آيات عديدة:

قال جل شأنه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[الروم: 21]،

وقال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) [الطارق: 5]،

وقال سبحانه: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) [النحل: 68 – 69]،

وقال سبحانه: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) [آل عمران: 190 – 191]،

وقال عز وجل: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)[الغاشية: 17 - 20]،

وقال عز وجل: (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)[النحل: 79]،

وقال سبحانه: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) [السجدة: 27].

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 17 / N°: 1 (2023), page13-36

إلى غير ذلك من الآيات التي تُرشدنا وتوجهنا إلى النظر والتفكر في الكون، وهاتين القراءتين ليستا من باب الفضائل وإنما من باب حمل الأمانة والقيام بواجب الاستخلاف والعمران، فإعمالهما معا يؤدي إلى بناء الإنسان والعمران وآنذاك تصبح المعيشة طيبة، وإهمالهما معا يؤدي إلى التدهور والتقهقر في جميع المستويات، وبذلك تصبح المعيشة ضنكا، أما الاقتصار على قراءة واحدة فقط فيجعل البناء مختل الأركان كما يجعل الفهم مجزأ وغير متكامل.

ومن خلال هذه الآيات – الآيات التي دعت إلى التدبر والآيات التي دعت إلى النظر والتفكر....– نستنتج أن المطلوب قراءتين[1] : قراءة الوحي المسطور بترتيل وتدبر، وقراءة الكون بتأمل وتفكر، كما جاء في أوائل الآيات من سورة العلق، قال جل شأنه : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)[العلق: 1– 5]، "هنا طلبت من الرسول قراءتان : قراءة تأتي عبر التعلق بقدرة الله المطلقة في الحركة الكونية ودون كيفية محددة تتجلى في الاتجاه بالعلقة إلى مرحلة الإنسان كما تتجلى في الاتجاه بالحياة إلى الموت وبالموت إلى الحياة. وهي قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية وصفاتها وخلقها للظواهر ذات المعنى وتحديد هدف حق للخلق. قراءة خالصة لقدرة الله في كتاب كوني مفتوح.هناتأتي القراءة باسمه المقدس أي قراءة بالله بوصفه خالقا والخلق صفة يتفرد به الله.

وفي قراءة ثانية ليست هي باسمه ولكن (بمعيته) لذلك لم تأت الآية في الشطر الثاني على نحو المقدمة فلم يقل (واقرأ باسم ربك الأكرم) ولكن (اقرأ وربك الأكرم) فجعل العطف على الربوبية وأعطي الأمر الثاني (اقرأ) اتجاها مستقلا والأمر واضح بالنظر إلى حركة الواو في القراءة الثانية.

---

(1) تجدر الإشارة إلى أن الباحثين الذين دعوا إلى الجمع بين القراءتين أو القراءات لم يستحضروا هذه الآيات التي تدعوا إلى التدبر والنظر والتفكر.. أثناء دراستهم التأصيلية للفهم التكاملي بين الوحي والكون، واكتفوا فقط بالاعتماد على التنظير للمسألة من خلال سورة العلق، في حين أن القرآن الكريم في العديد من آياته يؤكد هذه المسألة كما رأينا.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 16 / N°: 1 (2022), page13-36

فدليل المعية هنا في (وربك). ثم يتخذ الله في القراءة الثانية صفة دالة على نوعية القراءة المطلوبة، وهي قراءة متعلقة بصفة كون الله كريما فيما خلق. أي كرم التسخير وتشكيل الظواهر ذات المعنى بالنسبة للإنسان. أي إنها قراءة في عالم الصفات التي تتجلى في الخلق وعالم الصفات عالم موضوعي، ولذلك جاءت القراءة هنا عبر علم متعلق بالقلم، القلم بالنسبة للإنسان (وسيط خارجي) لمعرفة موضوعية وليست ذاتية.

فالقراءة الثانية هي قراءة بالتفهم العلمي الحضاري (القلم) لتجليات القدرة في نشاط الظواهر ووجودها وحركتها وتفاعلاتها"[2]، وذلك من خلال "قراءة الكون والنظر في الخلق، ومعرفة ما دونت البشرية من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها.. وكل ما يتعلق به من عالم الخلق، والتشيؤ بما في ذلك تراث الأمم الذي دونته وآثارها"[3].

وبذلك تكون القراءة الأولى"قراءة غيبية تتم عبر التأمل الذاتي في الكون وعلاقات ظواهره بحيث يكتشف الإنسان أهداف الخلق لا (تركيب) الخلق فتنتهي هذه القراءة لدى ما أدركه إبراهيم الخليل، حيث نظر إلى الكون (بيتا) للإنسان، واكتشف مبدأ (الأمن) كعلاقة بين الله والإنسان في إطار هذا البيت الكوني وعرف قوة الخلق في إحياء الطير"[4]، فهي قراءة "كونية تستمد من الوحي الغيبي عبر القرآن، والقراءة الثانية موضوعية، حيث يهيمن القرآن بالرؤية الكونية للقراءة الأولى على شرط الوعي الإنساني في الواقع الموضوعي، (ليستوعبها) في إطارها العلمي النقدي التحليلي (ويتجاوزها) باتجاه كوني مستمد من الوحي الإلهي القرآني، فالقراءتان ليستا متقابلتين، قراءة في

---

(2) جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية، محمد أبو القاسم حاج حمد، ص228-229.

(3) الجمع بين القراءتين، د. طه العلواني، ص19.

(4) الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، حاج حمد، ص314.

القرآن تقابلها قراءة في الكون، وإنما هي قراءة بالقرآن تهيمن على قراءة الكون المتحرك بشروط الموضوعية"(5).

والعقل الإنساني هو الذي يقوم بمهمة الجمع والتنزيل على الواقع وبذلك "فالوحي والعلم والعمل، هي ذاتها مصادر المعرفة: نص وعقل وواقع. والأجمل من هذا أن يكون النص هو رافع لواء العقل الداعي إلى كل ضرب ممكن من التدبر والتفكر والتعقل والإبصار والفقه والاعتبار.. في حركية ودينامية متجددة"(6)، ومن ثمة "فالوحي وبيانه (كتابا وسنة) يؤسسان للتكامل لا للتقابل، ويجعلان من النظر والتعقل والتدبر والتفكر.. ومن العلم والمعرفة سبيلا إلى الإيمان نفسه"(7).

ولتحقيق هذا الفهم التكاملي والتدبر العميق القائم على الجمع بين القراءات لابد من شروط ينبغي تحققها، من بينها: عدم هيمنة قراءة على قراءة أخرى "بحيث تعتمد بشكل متوازٍ نصا وعقلا وواقعا، فغالبا ما نجد هيمنة جانب على آخر. الأمر الذي يبرر تضخم نزعات نصية مغلقة على حساب العقل ودوره في التدبر والتفكر والاجتهاد، وعلى حساب الواقع ودوره في تكييف الأحكام. أو تضخم نزعات عقلية أو واقعية على حساب إرشاد النص وهدايته وتصويبه وتسديده، إذ هو المطلق وما عداه نسبي ومتغير. والعلوم التي تتعاضد فيها هذه المصادر وتتكامل، لاشك أنها ستكون أكثر وظيفية وإجرائية ونفعا وخدمة وتحقيقا لمصالح الإنسان في عاجله وآجله"(8)، كما ينبغي "أن يستوعب القارئ إطلاقية الكون وإطلاقية القرآن. فالكون طبيعة لا تعطي إلا ظواهر الحركة، أما القرآن فحروف، وليس سوى الإنسان الذي يستوجب بمطلقه هو لكوامن الإطلاق في القرآن وفي الكون وفي نفسه، فالقارئ الذي لا يستجيب لكوامن الإطلاق في نفسه هو أولا، لا يستطيع أن

---

(5) ابستمولوجيا المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، حاج حمد، ص195.
(6) الثقافة والعولمة، د. سعيد شبار، ص128.
(7) نفسه، ص129.
(8) الثقافة والعولمة، د. سعيد شبار، ص127.

يتكافأ مع شروط القراءة الجدلية وقدراتها النقدية والتحليلية ومنهجيتها المعرفية المفتوحة"، كما أن هذا الجمع ينبغي أن يتحقق"بمنطق (جدلي) وليس (ثنائي)، وقراءة في (إطلاق) وليس في (متقابلات محدودة)... فمن لم يكتشف هذه الإطلاقية ومن لم يتبين مفهوم التفاعل الجدلي لا يستطيع أن يجمع بين القراءتين"[(9)].

وبهذه الشروط يمكن"التحقق من القول (أن القرآن معادل موضوعي بالوعي للوجود الكوني وحركته) فلا يكفي النظر في القرآن دون وعي منهجي لنكتشف فيه منهجا، ولا يكفي النظر في القرآن دون وعي معرفي لنكتشف فيه نسقا أو نظاما معرفيا محددا. فأن نفهم القرآن بالواقع، وأن نفهم الواقع بالقرآن، فإن ذلك يتطلب رؤية أو وعيا منهجيا ومعرفيا لكليهما.

لذلك فإن مفهوم (الجمع بين القراءتين) قد أخذ في كثير من الأحوال على نحو مخل للغاية، إذ ليس المقصود من الجمع بين القراءتين أن ننظر في القرآن وننظر في الواقع لنقول في الختام أن القرآن كون مسطور والواقع كون منثور، إذ صحة هذه المقولة –وهي صحيحة- لا تثبت إلا بالقراءة المنهجية والمعرفية (في كليهما)، القرآن والواقع وهذا هو معنى (الجمع بين القراءتين)"[(10)].

## القراءة التدبرية المعرفية واستكشاف السنن والقوانين الكونية

وردت لفظة "سنة" في القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: (وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ) [الأنفال: 38] (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا )[الأحزاب: 38] (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) [الأحزاب62] (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) [فاطر: 43]، "فهذه الآيات المباركات وغيرها، تؤكد بأن الحياة البشرية تجري بمقتضى سنن

---

(9) جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص260.

(10) جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، حاج حمد، ص11.

أجراها الله في خلقه، وثبتها سبحانه وتعالى لتنظيم الحياة البشرية على نسق واضح؛ ليعرف الإنسان فيها خطواته، من أين مبتدأه وإلى أين منتهاه؛ لكي يسير على هدى ولا يتخبط في سيره"[11].

وتنقسم السنن الواردة في القرآن المجيد إلى:

أ- سنن كونية وهي التي تتعلق بالكون وما يجري فيه، ومن هذه السنن "نظام الزوجية"، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)[يس: 36]. (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[الذاريات: 49].

ب- سنن نفسية: هي التي تتعلق بالنفس البشرية، وما يجري في خلجاتها. ومن هذه السنن النفسية، سنة "التعجيل" كما تشهد الآيات التالية على هذا المعنى: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) [الأنبياء: 37] (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) [الإسراء: 11]، ومن السنن النفسية، سنة "حب المال والتملك" وفيها يقول تعالى: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[الفجر: 20]

ت- سنن اجتماعية: هي التي تتعلق بالاجتماع البشري وما يدور في، ومن هذه السنن الاجتماعية، سنة "التعارف" بين الناس، كما قال تعالى: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: 3]، ومن السنن الاجتماعية التي ذكرها القرآن المجيد، سنة "الفتنة والابتلاء" كما في قوله تعالى :(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً )[الأنبياء: 35]، (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)[العنكبوت: 2–3].

ث- سنن تاريخية: هي التي تتعلق بحركة التاريخ مع الزمن"[12].

(11) حركة التاريخ في القرآن الكريم، عامر الكافيشي، ص226.

(12) ينظر حركة التاريخ في القرآن الكريم، عامر الكافيشي، ص226-227-228.

والملاحظ أن معنى السنة في القرآن الكريم يختلف عن تعريف السنة عند المحدثين والفقهاء والأصوليين، فالمقصود من السنن داخل النص القرآني تلك "الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ" أو بتعبير آخر، هي "القانون العام الذي وضعه الله لحكم سلوك البشر وأفعالهم وما يصيبهم"(13).

ومن خصائصها الاطراد والثبات وعدم التبدل، والربانية والإنسانية، وهي لا تحابي أحدا فمن أخذ بها –بغض النظر عن دينه- أعطته من عطائها وإمكانيتها التي من شأنها تغيير الأمم والمجتمعات من حالة الانحدار والتدهور إلى حالة الرقي والتطور، قال تعالى:(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)[الإسراء: 20].

فالقرآن الكريم نبه "العقل الإنساني إلى أن يلاحظ ويجرب ويكتشف قوانين الكون وسننه التي لا تتبدل ولا تتغير، تلك القوانين التي أخضع الله سبحانه وتعالى لها الطبيعة والكون والحياة، وجوانب مهمة من حياة الإنسان: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53]. إن القرآن وهو يقدم أدلة الخلق عل الحق يقدم لنا مجموعة من قوانين وسنن كونية ثابتة لا تحتاج البشرية للكشف عنها سوى استخدام الوسائل التي أتاحها الخالق العظيم جل جلاله لنا من سمع وبصر وفؤاد بالفاعلية المطلوبة فهي قوى وعي قائمة فينا"(14).

والقرآن الكريم "حين أكد أن سنن الله وقوانينه لا تتحول ولا تتبدل، فإن ذلك لم يكن لنفي التحولات والمتغيرات النوعية في الكون، بل لبيان أن هذه السنن والقوانين مستقيمة بريئة من التناقض؛ فهناك سنة وقانون خلق الكون، وسنة وقانون خلق آدم، وسنة وقانون استخلافه واصطفائه، وهناك سنة وقانون الوحي وإنباء الرسل والأنبياء وإرسالهم إلى البشر، وهناك سنة

---

(13) نفسه، ص229.

(14) معالم في المنهج القرآني، طه العلواني، ص117-118.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 17 / N°: 1 (2023), page13-36

وقانون اختصاص نيل العهد الإلهي بالمتقين، وأنه (يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [البقرة:124]، فتلك هي سنن الله، وليس في ذلك –كله- ما ينفي التغيرات النوعية"(15).

ولا سبيل إلى معرفة هذه السنن الخادمة للإنسان والبانية للعمران إلا بالقراءة التدبرية المعرفية، التي لا تقف عند ظواهر الأشياء بل تنظر فيما وراءها لاستخلاص هذه القوانين، معتمدة في ذلك على المنهج التكاملي في استنباط المعرفة، باعتبار التدبر هو مجموع "المعرفة الحاصلة بالعقل التي يتم التوصل إليها عبر التأمل والتدبر والاعتبار والاستدلال فيما يقدمه الوحي الإلهي"(16)، وباعتبار النظر في الكون هو مجموع السنن والقوانين التي يتم التوصل إليها عبر جولان الفكر الإنساني في آفاق الكون وفي تاريخ الماضيين. وهذا المنهج هو "قراءة معرفية تكاملية تجمع بين عالم القرآن الكريم وعالم المخلوقات، عالم المعاني الشرعية وعالم المسخرات الكونية، بهدف جعل العقل الإنساني مستوعبا لتلك المعاني وتكييفها في الواقع الإنساني".

وهكذا يتحقق الإدراك المعرفي للقرآن المجيد وللكون المديد بمنطق جدلي تفاعلي، ينطلق من "استثمار مجموع قوانين نظمية ومعرفية وسنن تاريخية وحضارية بمنطق اجتهادي استكشافي وبقصد تحقيق مقاصد شرعية منظمة للاستخلافالإنساني والعمران البشري"(17).

ومن خلال هذه القراءة المتبصرة نستطيع اكتشاف السنن المبثوثة في الوجود والتي بموجبها يمكن"إنارة العقل الإنساني من كل الظلاميات التي تخيم عليه جراء شيوع الخرافات والتصورات المشوهة وضغوطات الشهوات والرغبات والنزوات البشرية، المنفلتة عن حدود المعقول؛ للانفتاح به على الحاضر والمستقبل بواقعية وعقلانية"(18).

---

(15) معالم في المنهج القرآني، ص88.
(16) مدخل تأسيس في الفكر المقاصدي، عبد الرحمن العضراوي، ص14.
(17) نظرية التدبر القرآني والنسق التأويلي والمقاصدي، عبد الرحمن العضراوي، ص53.
(18) حركة التاريخ في القرآن، ص343-344.

لأن القرآن الكريم "لا يعطي نفسه إلا لقارئيه المتدبرين، والقارئ الذي يستطيع أن يأخذ من القرآن العظيم بعض كنوزه ومكنوناته هو ذلك الذي ينطلق من القراءة للقرآن العظيم ابتداء باعتبار القراءة منهجية هذه الأمة تنطلق منها مستخدمة التدبر والتأمل والتذكر والفهم والفقه واللغة والأثر كلها كوسائل في فهم القرآن الكريم. ثم ينطلق بعد ذلك بكل هذه الوسائل لقراءة الكون المفتوح الذي يشكل وسيلة أخرى من وسائل الفهم والإدراك الإنساني الإسلامي للقرآن الكريم.

فالقراءتان متضافرتان ومتلازمتان. قراءة القرآن المسطور قراءة تحليلية متدبرة، وقراءة الكون المنشور قراءة سُننية علمية. وإن إعمال القراءتين معا والجمع بينهما بمنهجية كونية والانطلاق منهما مع الاستفادة بسائر الوسائل تجعل من هذه القراءة الكاملة الوسيلة الدائمة المتجددة لتحقيق الغاية من الخلق وبناء الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

كما أن تعطيل أي من القراءتين أو تجاوزهما أو الإخلال بالتوازن بينهما هو إعراض عن ذكر الله تعالى يترتب عليه من الحرج ما يجعل المعيشة ضنكا والمآب سيئا: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه: 124]"[19].

وانطلاقا من القراءة التدبرية المعرفية ومن هذا الجمع التكاملي والتوحيدي يمكن الكشف "عن قوانين الحركة الاجتماعية والتاريخية والسنن الإلهية في الكون والإنسان، في الأفراد والجماعات، في النظم والعلاقات، في الثقافات والحضارات، وذلك لأن الجمع بين القراءتين يعتمد اعتمادا تاما على الربط المنهجي بين القرآن المجيد باعتباره الكتاب المطلق المتضمن للوعي المعادل المستوعب للوجود الكوني وحركته، وكذلك ما يتمثل في هذا الوجود من أشياء ودلالات لها. فالقرآن المنزل والكون المنشأ يكمل كل منهما الآخر في الكشف عن دلالات الوجود الكوني وقوانينه وسننه، يحقق القرآن

(19) من مقدمة طه العلواني لكتاب منهجية القرآن المعرفية، حاج حمد ص19، ونحو منهجية قرآنية معرفية، د. طه العلواني، ص 146-147.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X




المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 17 / N°: 1 (2023), page13-36

ذلك بالوحي المقروء المنطوق، ويحقق الكون ذلك بحركته القائمة على قوانينه وسننه، وبذلك تصبح القراءة في كل منهما متممة للقراءة في الآخر، ومبينة لدلالاتها، وتتضافر تلاوة آيات الكون وقوانينه وسننه مع تلاوة آيات الكتاب وسوره للكشف المشترك عن منهجية معرفية كونية لا يمكن الكشف عنها إلا بذلك"(20).

وبهذين المحددين – الجمع بين القراءتين والسنن والقوانين الكونية- وبمحددات أخرى يمكننا الكشف عنها انطلاقا من منهجية القرآن المعرفية يمكننا تقويم مسارنا الحضاري واستئناف البناء الإصلاحي والتجديدي، لتحقيق مقصد الاستخلاف وحفظ الأمانة وحملها كما كُلِّفنا، والخروج من الأزمات المهددة للإنسان والمخربة للعمران.

## التدبر المعرفي للقرآن الكريم ودلالاته الحضارية

عندما أصبح التعامل مع القرآن الكريم تعاملا شكليا؛ من خلال قراءته في مناسبات الأحزان والعزاء، ووضعه في الرفوف، أو استعماله كتمائم توضع فوق صدور عارية، تحولت وظيفته من كتاب حياة إلى كتاب موت، ومن كتاب للأحياء إلى كتاب للأموات، ومن كتاب تحرك إلى كتاب تبرك، وبذلك انعدم تنزيله على الواقع والقلب معا.

"وقدحذر القرآن المجيد من كثير من أنواع القراءات التي تكون حجة على القارئ، لا حجة له. ومن أبرز أنواع القراءات التي شدد النكير على أصحابها "القراءة الحمارية" وهي التي جاء التنبيه إليها والتحذير منها في الآية الخامسة من سورة الجمعة:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[الجمعة: 5]، وليس هناك شيء أبلغ في نفي حقيقة القراءة وعدة الاستفادة بها من هذا المثل، فالحمار لا يقرأ ولا يكتب ولا يفكر ولا يتعظ ولا يتذكر، وجوهر العلاقة بين الحمار والكتاب أن يوضع على ظهره، ويسيره صاحبه –بعد ذلك- يمنة أو يسرة كما

---

(20) نحو منهجية قرآنية معرفية، د. طه العلواني، ص104.

يشاء، بل الحمار لا يدرك ما الذي يحمل، فضلا عن أن يدرك أهميته، إنما يدرك منه ثقله أو خفته على ظهره، ولذلك فإن هذا النوع من حمل الأمانة –أمانة الكتاب- لم يؤد بهم إلى فقه في الدين، اللهم إلا ذلك "الفقه البقري" إن صح تسمية ما بدا منهم في تعاملهم مع الأمر بذبح "بقرة فقها"[21]، فأسئلة أصحاب البقرة كلهما منصبة على الأشكال (ما هي؟ ما لونها؟ إن البقر تشابه علينا) لا على الحقائق.

وإذا كان مثل الحمار والفقه البقري مزعجين فهناك مثل الكلب:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)[الأعراف: 175 – 176]، ومن لم يعجبه هذا المثل فهناك حيوانات أخرى وهناك من جعل الله (مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) [المائدة: 60].

"ومن المؤسف أن الأمة المسلمة بعد الصدر الأول قد سقطت –رغم النذر كلها- فيما سقطت فيه أمم من قبل؛ فقد حُمِّلوا القرآن ثم لم يحملوه إلا بتلك الطريقة "الحمارية"، فلم يحسنوا قراءته، ولم يرتلوه ترتيلا كما أمروا، ولم يتلوه حق التلاوة، ولم يدبروا آياته، بل هجروه (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) [الأنعام: 26] فأهلكوا أنفسهم. فأصاب فقههم للدين عامة، وللقرآن خاصة ما أصاب فقه أصحاب البقرة في تنفيذ واجب ذبح البقرة.. بل قد حدث منا ما هو أخطر من ذلك حين شابهنا (الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)[الحجر: 90 – 91] فـ"المقتسمون" وإن تعددت أقوال المفسرين فيهم، فإننا نرجح أن يكون المراد أولئك الذين جعلوا القرآن مقسما، فما وافق ما

---

(21) الوحدة البنائية للقرآن المجيد، د. طه العلواني، ص8.

لديهم قالو بصحته مع دعوى اقتباسه منهم، وما خالف ما عندهم من تراث قالوا فيه ما يشاءون : (أساطير الأولين أو سحر أو كهانة أو شعر). فقسموه وقالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض"[22].

لهذا نحتاج إلى تجديد الوعي بالقرآن الكريم ونتلوه حق التلاوة ونتدبره حق التدبر، حتى نستطيع الخروج من حالة الحمل الحماري ومن المرتبة الحيوانية إلى حالي التلقي الإنساني والحمل الإنساني الذي يعتمد على حسن توظيف قوى الوعي وتهيئها لاستقبال أنوار القرآن العظيم، وبذلك لا نكون كالذين قال الله سبحانه في حقهم (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)[الأعراف: 179]، فالأنعام تهتدي لطعامها وشرابها بشكل غريزي، أما الإنسان إذا عطّل قوى وعيه عن التدبر والتفكر صار دون مرتبة الأنعام ذات التوجه الغريزي.

فتدبر القرآن الكريم هو القادر على إعادة اتصالنا بالقرآن والتواصل معه من أجل النهوض والبناء الحضاري وتحقيق دور الاستخلاف على أحسن وجه وحمل الأمانة حق حملها، لأن القرآن الكريم يحمل بين ثناياه كل مقومات النهوض وجميع سبل التغيير وآليات الإصلاح، فمن تمسك به واتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، ومن تخلى عن تدبره وأعرض عنه فإن له معيشة ضنكا، قال جل شأنه : (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: 38]، (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه: 124].

ولا شك أن الغرب اليوم استفاد وما يزال يستفيد من هذه القوانين والسنن البانية للعمران التي نبه إليها القرآن -على الرغم من عدم أخذهم بجوانب أخرى منه- وفي هذا يقول محمد رشيد رضا في مقدمة كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية لمحمد عبده "ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها، فأحيا الأرض بعد موتها، ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضا من خرائب جيرانهم، فغيض الماء، وما بقي منه صار مستنقعات تجتوى، ولم يلبث بعد ما غاض أن

(22) نفسه، ص8-9.

فاض منه شيء في مواضع أخرى، فانتفع أهلها به وحافظوا عليه، ولكن الأكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم، كما أن أكثر أهل الينبوع المنتسبين إليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء تفجر في تلك المواضع، فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة، هو من ماء ينبوعهم، وأنهم لو أزالوا عنه تلك الأنقاض إذا هم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للأحياء.

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الأمم الغربية الحية الراقية: أخذ الغربيون من الإسلام كل أصول الإصلاح، الذي هم فيه، وهم يقولون إن الإسلام عقبة في طريق كل إصلاح، ويقولون للمسلمين: إن ماءنا صاف نقي يحيي البلاد والعباد، وماءكم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل. فكيف يستوي الماءان، وقد اختلف الأثران؟ منهم من يقول هذا معتقدا، ومنهم من يقول منتقدا، ونحن ساكتون عنهم لأننا جاهلون بأنفسنا وبهم"[23].

"فنحن لم نستطع بعد الارتقاء إلى مقام الارتباط بالكتاب بمنهج الكتاب نفسه، وإدراك مكامن ومداخل التفعيل لما تم تيسيره وتسخيره من هداية وإصلاح وعلوم ومعارف وسنن ونواميس، هي جزء من الوجود العلائقي الكوني للإنسان. ومن تم ما يزال ارتباطنا به قاصرا جدا، ونظرتنا له تقديسية سطحية. فلم نستطع الانتفاع بخيراته كما انتفعت الأجيال السابقة، بل نجد أن كثيرا من التراث المنجز حوله حال ويحول دون إبصار آياته بوضوح، إذ قرئ القرآن شواهد لا شاهدا على العلم والمعرفة، واختزلت أحكامه في بضع عشرات لا تنهض بأحكام الإنسان فكيف بأحكام العمران، وكل آياته أحكام. فأين نحن من كونه لا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه: ومن كونه كريما ومعطاء؟!"[24].

فلا سبيل لنا لإعادة الحياة بالقرآن إلا من خلال تجديد الصلة به، وأن نتدبره ونرتله ونستمر في ذلك إلى أن تتطهر القلوب وتتخلص من الأكنان التي أحاطت بها ومن الأقفال التي وضعت عليها،

---

(23) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده، ص 6-7.
(24) الثقافة والعولمة، د. سعيد شبار، ص184.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 17 / N°: 1 (2023), page13-36

وتتخلص النفوس من صدئها، والعقول من غفلتها، والآذان من الوقر الذي فيها، والأبصار من غشاواتها، لكي يصبح بمقدورنا أن نمس القرآن الكريم وأن نعرج إلى معانيه العالية، لأن محاسن أنواره لا تثقفها إلا البصائر الجلية، وأطايب ثمره لا تنالها إلا الأيدي الزكية، ومنافع شفائه لا تنالها إلا النفوس النقية، لأنه قرآن كريم ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)﴾[الواقعة: 78 – 79].

فالتدبر إذا ضروري لبنائنا الثقافي والحضاري، كما يُورِّث فينا عقلية نقدية تجعل القرآن الكريم مهيمنا ومصدقا على كل شيء، كما أن الجمع التوحيدي بين القراءات يفتح لنا أبوب المعرفة والعلم من بداية تاريخ البشرية، مع الاستمرار في العطاء، كما يفتح الآفاق على الزمان وعلى الإنسان وعلى التاريخ وعلى الإنسان.

فعلاج الأزمات لا يكون إلا بتدبر القرآن الكريم وفهمه، والعمل على الربط بين الناظم المنهجي لآيات الكتاب وللسنن والقوانين المبثوثة في هذا الكون، وفهم المشكلات والأزمات واستيعابها ثم تحويلها إلى أسئلة أو تساؤلات ثم نذهب بها لرحاب القرآن ملتمسين الحل لذلك المشكل أو لتلك الأزمة، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ". فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ.."(25). وفي هذا قال الإمام الشافعي: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"(26).

---

(25) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن (125/6)(30007)، والدارمي في سننه، باب فضل من قرأ القرآن (2098/4)(3374)، والترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل القرآن (172/5)(2906)، والبزار في مسنده (71/3)( 836)، ومحمد المخلص في المخلصيات (61/3)(1996)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تعظيم القرآن (335/3)(1788)، ويحيى الشجري في ترتيب الأمالي الخميسية (120/1)(461).

(26) الرسالة، الإمام الشافعي، ص19.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 16 / N°: 1 (2022), page13-36

فالتدبر السليم للقرآن هو السبيل القادر على إخراجنا من هذه الفتن وهذه الأزمات التي نتمرغ فيها، وهذا لا يعني أن نذهب إلى التفاسير وكتب الفقه ونلتمس منها هذا الفرج، وإنما لابد من تعاملنا مباشرة مع القرآن الكريم نفسه دون واسطة، متتبعين في ذلك منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تأويله وتنزيله على الواقع، لأن التفاسير والكتب الفقهية "بمثابة وسائل شفافة –كالزجاج- لعرض قدسية القرآن الكريم، وليس حجابا دونه، أو بديلا عنه"[(27)]، أي أن تكون "مرايا ومناظير لرؤية القرآن وليست حجبا وظلال بديلا عنه"[(28)].

لهذا "ينبغي أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبح حجابا دونه كما آلت إليه –بمرور الزمان- من جراء بعض المقلدين. وعندئذ تجدها تفسيرا بين يدي القرآن مصنفات قائمة بذاتها[(29)].

كما أن تدبر القرآن العظيم لا ينحصر "في فقه الاتعاظ والاعتبار أو فقه الأحكام الشرعية أو فقه دلائل الإعجاز وإنما تتضمن تفاعلات كل الهدايات القرآنية الضرورية لاستقامة الحياة الإنسانية في سياق المسخرات الكونية[(30)]، أي تدبر القرآن المجيد تدبرا معرفيا من أجل استخلاص محددات منهاجية تمكننا من الاهتداء المعرفي واستنباط مقومات الشهود الحضاري، لأن الاقتصار فقط على "إخضاع النص القرآني لغاية استخراج التقنيات الفقهية والعقدية يفضي إلى انحسار علاقة المؤمن مع النص في حدود المجال التوظيفي فحسب. عند ذلك لا تتجاوز العلاقة بالقرآن إطار تحقيق استجابة ظاهر النص للاحتياجات الفقهية والعقدية المراد التوصل إليها. أخطر ما في هذه العلاقة توليدها لذهنية توظيفية

---

(27) صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم، بديع الزمان سعيد النورسي، ص347.
(28) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ص603.
(29) صيقل الإسلام، ص348.
(30) نظرية التدبر القرآني والنسق التأويلي والمقاصدي، د. عبد الرحمن العضراوي، مجلة أنوار، العدد الثالث 1435هـ2014م.ص56.

للنص تجعل إيمان المسلم (قصير المدى) لا يرى في تعامله مع القرآن إلا الجانب النفعي الخارجي. خصوصية الإيمان المتولد في رحم هذه الذهنية تقوم على الاطمئنان والترديد، وتجاهل حيرة المؤمن وتساؤلاته، وتوقه إلى الارتقاء الروحي. بذلك يتوقف النشاط الإيماني عند عتبة عالم الحاجيات الظاهرية"(31).

**فكيف يمكن لهذه المحددات من استئناف بنائنا الحضاري؟**

انطلاقا من الوعي بتدبر القرآن المجيد والجمع بين قراءته وقراءة الكون (جمعا تفاعليا)، فإنه يتقرر أن هناك"مصدران للمعرفة الإنسانية يتضافران في توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضاري، والقيام بمهام العمران والاستخلاف في هذا الكون، ولابد للإنسان من الجمع بينهما، وعدم الغفلة عن أي منهما؛ فيفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق وبالوجود والسنن والقوانين الضابطة لحركته وحركة ما فيه، ويهتدى في أداء مهام الخلافة فيه والعمران، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد ونور هدايته"(32). "فبالقراءتين تدرك الفروق بين الأمم التي استفادت بالوحي واتبعته، واستنارت به، وبين الأمم التي تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون –وحده- دون استنارة بهداية الوحي. أو أهملت الكون والتجارب البشرية وعِبر التاريخ ودروسه.. فمن أراد أن يقرأ الوحي بدقة وتدبر فإنه لا غنى له عن قراءة الكون وما فيه بالنظر في خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت"(33).

وهذه القراءة التفاعلية "تكون ابتداء من الإنسان، فهو الذي لابد له من قراءتهما –معا- لتوجد لديه المعرفة العمرانية الكاملة، التي تمكن الإنسان من الوفاء بالعهد، والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة والقيام بمقتضيات العمران، والنجاح في اختبار البلاء"(34) ، "فالوحي ينبه إلى ما

---

(31) الإنسان والقرآن وجها لوجه، احميدة النيفر، ص159.

(32) الجمع بين القراءتين، طه العلواني، ص21-22.

(33) نفسه، ص19.

(34) الجمع بين القراءتين، طه العلواني، ص20-21.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 16 / N°: 1 (2022), page13-36

في الكون من عناصر ومؤثرات، وإلى ترابط الأسباب بالمسببات، وبين فعل الغيب والواقع، وكيف رصد آثار هذا الفعل، وأين يبدأ الدور الإنساني وأين ينتهي أو يتوقف، والكون يساعد على فهم الوحي والوعي عليه وعلى قضاياه، وحسن قراءته، وكيفية استدعائه للحضور الدائم والشهود المستمر لترشيد المسيرة الكونية، وتحقيق أهداف وغايات الحق من الخلق.

ومحدِّد الجمع بين القراءتين يربط بين الغيب والواقع ويمكن من استخلاص محددات يقرأ الواقع بها، ويمكن من الصياغة الدقيقة لإشكاليات الواقع والعروج بها إلى القرآن المجيد في وحدته البنائية للوصول إلى هديه في معالجتها.. وهكذا سيكتشف العقل العلمي أن "الجمع بين القراءتين" على هذا المستوى الإدراكي كفيل بتقديم الحل الكافي والعلاج الشافي لأزمات هذا الواقع.. لأن ذلك الحل بمستوى الأزمة، لا أقل منها ولا مقاربا لها، ولا مقارنا لها، بل هو مستوعب لها، ومتجاوز لأنه أرقى منها بكثير فيستوعب "الصيرورة وجدليتها"، ويستوعب "التغيرات النوعية"، ويستوعب "ضوابط المنهج العلمي" ويستوعبها بعد أن يقوم بنقدها وبيان ما يعتريها من قصور ناجم في جملته على الاعتماد على قراءة واحدة منفردة في الكون، وإهمال لقراءة الوحي الإلهي والقراءة به" (35)."وحين يقرأ الإنسان اليوم القرآن والوجود قراءة جمع وتلاحم سوف يقدم زادا فكريا ومعالجات ثقافية تعالج مشكلات الحياة وقضاياها"(36).

أما المحدد الثاني من محددات التدبر المعرفي –السنن والقوانين الكونية- فله فاعلية وحيوية حضارية كذلك في تحقيق نهوض الأمم، لأن هذه السنن "تحكم الإنسان وتحكم المظاهر الطبيعية كذلك، فمن أراد شيئا فعليه أن يعمل على تحقيقه بمنهج وعلى علم؛ فلكسب الحروب والمعارك

(35) معالم في المنهج القرآني، ص84.

(36) من مقدمة طه العلواني لكتاب منهجية القرآن المعرفية، حاج حمد، ص22.

وسائلها وأدواتها ومناهجها، ولتكوين الثروات وسائله وأدواته ومناهجه، وكذلك الحال في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة"(37).

وهذا ما يؤكد على أن "فقه سنن الله تعالى جزء من معرفة الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، وتعد من الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة. فقد أدى إغفال هذه السنن، والتقصير المعرفي بها، وعدم التعامل معها بشكل صحيح، إلى هدر الكثير من طاقات ومساعي المسلمين، وتعثر خطواتهم في طريق البناء الحضاري، حتى صاروا غرضا للغزاة ومطمعا للأعداء"(38)، لهذا نحتاج "إلى تعلم كيفية قراءة القرآن في كليته في تماثل وانسجام مع قراءة الكون الطبيعي في كليته، فهناك آيات طبيعية مبثوثة يكشف العقل نظامها الكلي، وقوانين ارتباطها وصولا إلى منهجها، وكذلك الأمر مع آيات القرآن حيث يكتشف نظامها الكلي ووحدتها العضوية المنهجية"(39).

كما أن "الإلحاح القرآني بالسير في الأرض، هدفه التعرف على تلك النواميس التي تتعلق بحركة الزمان، وتتحكم في مسيرة الواقع الإنساني في خطوات التقدم والتأخر، والعمران والخراب، والرقي والهبوط"(40)، فقد نبه القرآن الكريم إلى أن من السنن التي بسببها تتطور الحضارات أو تنهار: العدل والظلم، الاتحاد والتفرق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كما أن القصص القرآني يحمل في ثناياه دلالات حضارية توجه الفعل الإنساني في الواقع، قال سبحانه (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الأعراف: 176]، "فالقرآن باسترجاعه لقصص الماضي إنما يكتشف في الواقع عن عيوب المنظومات الفكرية والثقافية أو عن الأشكال الأيديولوجية الماضوية التي قدمت بعقليتها الإحيائية

(37) معالم في المنهج القرآني، ص85.
(38) حركة التاريخ في القرآن الكريم، عامر الكافيشي، ص228-229.
(39) الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه العلواني، ص 102.
(40) نفسه، ص229.

الظاهرات الطبيعية وتعاملت معها في صور فردانية وألبست النبوات تفسيرات خرافية أسطورية فألهت الطبيعة والبشر مما أعجزها عن التعاطي العقلي والموضوعي مع الوجود الكوني بأسره"(41).

وهو بذلك ينتقل "بالعقل الإنساني من مرحلة قراءة الماضي إلى مرحلة استنباط الدروس وفقه القوانين؛ لبناء الحاضر ورؤية المستقبل. فتحول التاريخ في منظور القرآن الكريم من سكونية ترفية إلى حركية رسالية تنبض بالحيوية، وترفد الإنسانية بالعطاء المستمر"(42).

فالتبصر بهذه القوانين، والوعي التام بها، يزود العقل الإنساني بالرؤية الواضحة لمجريات الواقع الإنساني في الماضي والحاضر، ويمكنه من تدبير وصياغة المستقبل، من أجل تحقيق النهوض الحضاري، لما لها من أبعاد معرفية ودلالات حضارية ونتائج علمية على حاضر الإنسان ومستقبله.

"وبذلك يكون القرآن المجيد قد أرسى وعي حركة التاريخ على أسس منهجية حكيمة، تعبر بالإنسان من التاريخ إلى الواقع، ومن الماضي إلى الحاضر، ليكتشف ما ورائيات هذه الحركة، بما يزود الفرد والأمة بالوعي، ويحرك فيها روح اليقظة، ويدفه بهما نحو الفعل التاريخي الشاهد على النهوض الحضاري الشامل. وإن أهم ما ينتجه الوعي القرآني لحركة التاريخ من فوائد على مسيرة الفرد والأمة هي:

أولا: القدرة على الإبداع والفعل الحضاري

ثانيا: القدرة على التحليل والنقد التاريخي

ثالثا: الإحساس بتقلبات الأحوال والظروف

رابعا: الإحساس بحتمية انتصار الحق"(43).

---

(41) جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ص343-344.

(42) حركة التاريخ في القرآن، ص342.

(43) التاريخ في القرآن، ص43.

خامسا: "أن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا"(44).

ومن خلال تدبر القرآن الكريم تدبرا معرفيا بالاعتماد على هذه المحددات – الجمع بين القراءتين، والسنن والقوانين الكونية، ومراعاةالنسقية القرآنية- وفهم مشكلاتنا وصياغتها وتحويلها لأسئلة، ملتمسين الإجابة في القرآن، نكون عندئذ مستنطقين ومستثيرين له ومثوّرين لآياته وعندها سوف يعيننا ويقدم لنا العلاج النافع وسبيل الخروج من الأزمة. لهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عَلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"(45).

وهكذا يتضح أن لتدبر القرآن الكريم دور فعال في البناء الحضاري، فهم ينسجم مع كل سقف زمني كما ينسجم خطابه مع جميع الأجيال، فلكل "مرحلة من مراحل التطور الإنساني خصائصها التكوينية المعرفية والخطاب التفصيلي –مع استحالته- يجب أن يأتي متسقا مع مرحلة التناول البشري له، وإلا كان الخطاب لمرحلة دون أخرى وهكذا يظل القرآن على إطلاقيته ليعطي كل مرحلة وحيها ضمن ما يتوافر لها من خصائص تكوينية معرفية"(46)، لاستناد "مطلق النص القرآني وإن تحدد بالحرف وعدة الكلمات إلى قابلية العطاء المتجدد بتكشف المكنون فيه تبعا لمتغيرات العصور بوصفه كتابا كريما"(47).

فهذه القراءة المعرفية "تفتح الآفاق للمتدبر لاكتشاف مكنون الكتاب، كما تمكن الإنسانية "من الاهتداء بهداية الكتاب الحكيم؛ وضبط عقولها ومعارفها ومسيرتها الثقافية والحضارية بضوابطه

---

(44) مقدمة ابن خلدون، (46/2).

(45) أخرجه المروزي في مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، باب ثواب القراءة بالليل (173/1)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تعلم القرآن (347/3)(1808)، والطبراني في المعجم الكبير (135/9)(8664) و(135/9)(8665) و(136/9)(8666).

(46) ابستمولوجيا المعرفة الكونية، ص277.

(47) ابستمولوجيا المعرفة الكونية، ص282.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 16 / N°: 1 (2022), page13-36

وموازينه فتتحرك في ظل هديه وهيمنته من منطق الظاهرة الكونية والتجربة الإنسانية، والسنن الإلهية والقواعد الكونية والاجتماعية في منهج قرآني يجعل حركتها منسجمة مع الغيب منفتحة على آفاقه، منطلقة في عمق التجارب العلمية والنهايات الفلسفية باتجاه عالمية الهدى الخالص والدين الحق، المحتم ظهوره على الدين كله، ولو كره الكافرون، وقصر الجامدون، وانحرف المعاندون"[(48)].

وهذه الأسس والمحددات التي تُستكشف من خلال تدبر القرآن المجيد والتفاعل معه هي الكفيلة بتحقيق الفاعلية العمرانية وإخراج الإنسانية من أزماتها، وتقويم مسارها الحضاري وتحديد وجهتها، وعندئذ يصبح القرآن الكريم كتاب هداية، ودليل استخلاف، وسبيل خلاص ومنطلق عمران.

## خاتمة

إن المطلوب من الإنسان هو الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون، جمعا جدليا قائما على التفاعل عن طريق الاتصال مع القرآن والتواصل مع الكون، فالقراءتان تتضافران وتتعاضدان لتشكلان الرؤية القرآنية المعرفية الحضارية، التي بها يهتدي الإنسان المستخلف لحمل الأمانة حق حملها، وانطلاقا من محدد الجمع التكاملي بين القراءتين تم اكتشاف محدد آخر يوجهنا القرآن الكريم للعمل بمقتضاه، وهو محدد السنن والقوانين الكونية الفاعلة والمتحكمة في الوجود، فعلى أساسها تبنى الحضارات أو تنهار، وتم استنتاج أن عدم تفعيل المسلمين لهذه السنن أو إغفالهم عن استنباطها من خلال تدبر القرآن والنظر في سير الماضين كان ولا يزال هو سبب تخلفهم، وأن تقدم

(48) منهجية القرآن المعرفية، ص11.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X




المجلد16/العـدد: 1 (2022)، ص13-36
Vol 17 / N°: 1 (2023), page13-36

غيرهم كان بسبب إعمالهم لهذه النواميس وتفعيلها في واقعهم، لأنها لا تحابي أحدا بغض النظر عن دينه أو انتمائه.

وعلى هذا الاعتبار فإن التدبر أوسع دلالة من حصره في استنباط المواعظ والأحكام الفقهية الجزئية من أدلتها التفصيلية، بل يتضمن كل ذلك وزيادة، أي تتمثل في التعامل معه تعاملا معرفيا باعتباره كتاب هداية واستخلاف، بحيث يكون المصدر المنشئ والمُولّد للمعارف، وبذلك يتم تجاوز قراءة القرآن بواسطة تفسير أو غيره، لأن التدبر -كما تم بيان ذلك- فرض على جميع أصناف الناس بخلاف عملية التفسير والتأويل والاستنباط والفقه، المحصورة في فئة معينة.

ومن ثم فإن تدبر القرآن الكريم تدبرا معرفيا، انطلاقا من مراعاة النسقية القرآنية، وباعتباره معادلا موضوعيا للوجود الكوني وحركته، عن طريق الجمع بين قراءة الكتاب المسطور قراءة استنطاقية تثويرية متدبرة، وقراءة الكون المنشور قراءة تحليلية سننية علمية، نستطيع تجاوز تلك القراءة العِضينية، إلى قراءة قائمة على منهج تكاملي توحيدي يهدف إلى اكتشاف القوانين الفاعلة في التاريخ، والسنن الإلهية الحاكمة للكون والإنسان، وللثقافات والحضارات، بغية تحقيق الفاعلية العمرانية وإخراج الإنسانية من أزماتها، وتقويم مسارها الحضاري وتحديد وجهتها.